



امتازت البحرين طوال تاريخها بوجود عدد كبير من فطاحل شعراء العربية. وقد جادت هذه الأرض الطيبة منذ القدم بعدد كبير من الشعراء المتميزين الذين تجاوزت شهرتهم حدود البحرين وسجلوا أسماءهم بسطور واضحة في ديوان الشعر العربي... وقد بدأت هذه السلسلة العظيمة بشاعر المعلقات الكبير طرفه بن العبد وخاله المتلمس وابن المقرب العيوني وصولاً إلى الشيخ خالد بن محمد آل خليفة وإبراهيم العريض وحتى غازي القصيبي وحسن كمال... والوثيقة في هذا العدد تعرض في سطور دراسة عن الشاعر ابن المقرب العيوني الذي يعتبر بحق المؤرخ الحقيقي والموثق لدولة العيونيين في البحرين.



ربما يكون شاعرنا الفحل "علي بن المقرب العيوني" بشعره يمثل تجسيدا لمقولة العرب القديمة والشهيرة "الشعر ديوان العرب"... فلقد نظر بعض المؤرخين والنقاد من العرب للشعر على أنه يحمل في طياته وثيقة تاريخية وبيئية يمكن الاعتماد عليها في التعرف على أحوال العرب وبيئاتهم وثقافتهم وتاريخهم ومحمل أحوالهم ولخص ذلك قولهم "الشعر ديوان العرب"... وفي شعر ابن المقرب العيوني تلحظ سريعا أبعاد هذه المقولة وتمكنها من شعره حيث تراه بحق "ديوان الدولة العيونية"...

فقد كان ابن المقرب العيوني عالماً بالأنساب والأيام وحوادث التاريخ وتفاصيل الدولة العيونية كما عاشه ملماً بعلم الفلك... وعارفاً بمشاهير الرجال ممن يمثلون علامات ورموزاً لأمتنا في الشجاعة والمروءة والعدل والكرم والزهد والتصوف والبلاغة والفصاحة... وكل ذلك جعل شعره يتضمن معلومات تاريخية وحكماً... فقد دخل هذا الاتجاه في الكثير من أغراضه الشعرية، وقد لا نجد له قصيدة تخلو من عبر التاريخ ومواعظه... وفي فوائحه وتضميناته التاريخية أبدى إلماماً واسعاً بنواحي التاريخ وحوادثه، حتى استحق أن يعد أحد رجالات التاريخ في عصره... وأنه ديوان الدولة العيونية.

وشاعرنا ابن المقرب العيوني ولد في منطقة العيون من البحرين (مدينة العيون حالياً) في (٥٧٢ - ٦٣٠هـ / ١١٧٦ - ١٢٣٢م) ويعد أحد الشعراء المشاهير في العصر العباسي الثاني، من شعراء الدولة العيونية... وتؤكد الروايات صحة هذا التاريخ بإجماع المؤرخين الذين عاصروه وكتبوا عنه مثل ابن الشعار الموصللي حيث قال نقلاً عن ابن المقرب نفسه:

"أخبرني أنه ولد بالعيون في سنة اثنين وسبعين وخمسمائة... وقد تعلم على ما يبدو في الإحساء... إذ ليس هناك ما يدل على خروجه لطلب العلم في شبابه... إلا أن الدارس لشعره وثقافته يكاد يجزم أنه قد نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة في شبابه المبكر.

وقد نظم ابن المقرب العيوني في أكثر الآراء الشعر قبل بلوغه سن العاشرة.. وكان لنشأته في بيئة دينية أثر في أخلاقه وسيرة حياته وعاش في ظل الدولة العيونية التي حكمت مناطق الأحساء في وقت كانت فيه الخلافة العباسية ضعيفة تحتضر في آخر أيامها... وقد سجنه أمير الأحساء محمد بن علي بن عبد الله، وصادر أملاكه ظلماً... فاضطر إلى الارتحال إلى بغداد... وبعدما خرج من

سجنه، عاد إلى موطنه ثم توجه قاصداً ديار بكر يريد لقاء الملك الأشرف بن العادل فأخبر أن الأشرف نهض إلى دمياط لملاقاة الإفرنج، فنزل إلى الموصل ومدح وإليها، ثم عاد إلى الإحساء، كما ارتحل إلى القطيف، وكان يحدث الناس بشعره حيثما حل، ويتغنى بمسقط رأسه شوقاً وحنيناً... ومدح عدداً من الخلفاء العباسيين، منهم الناصر لدين الله، والظاهر، والمستنصر بالله، والسلطان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومما قاله في لؤلؤ:

حُطّوا الرحال فقد أودى بها الرّحلُ ما كُلفت سيرها خيلٌ ولا إبل
بلغت الغاية القصوى فحسبكم هذا الذي بعلاه يضرب المثل

وقد كان لتنقله وارتحاله ومقابلة العلماء والأدباء ومواظبته على الأخذ عن العلماء أثر في اكتساب قدر كبير من العلم والمعرفة بدا ذلك في شعره، فقد كان واضحاً أنه (عالم بالأنساب والأيام وحوادث التاريخ، وتفصيل الدولة العيونية، وملم بعلم الفلك، عارفٌ بمشاهير الرجال ممن يمثلون علامات ورموز لأمتنا في الشجاعة والمروءة والعدل والكرم والزهد والتصرف والبلاغة والفصاحة).

وقد ورد ذكر العيوني في كتاب (الأعلام)، لخير الدين الزركلي، فقال: "شاعرٌ مجيدٌ، من بيت إمارة نسبته إلى حي العيوني في مدينة "المبرز"، وهو من أهل الإحساء - غربي الخليج العربي - اضطهده أميرها "أبو المنصور علي بن عبد الله بن علي" وكان من أقاربه، فأخذ أمواله وسجنه مدة ثم أفرج عنه، فأقام على مضض. رحل إلى العراق ومكث في بغداد أشهراً. وعاد فنزل في "هجر"، ثم في "القطيف"، واستقر ثانية في بلدة الإحساء، ومحاولاً استرداد أمواله وأملاكه، ولم يفلح. وزار الموصل سنة ٦١٧هـ، للقاء الملك الأشرف بن العادل، فلما وصل إليها، كان

الأشرف قد بارحها لمحاربة الإفرنج في "دمياط". اجتمع به في الموصل "ياقوت الحموي"، وروى عنه بيتين من شعره، وذكر أنه "مدح بالموصل بدر الدين لؤلؤاً وغيره من الأعيان، فأرفدوه وأكرموه، وعاد بعد ذلك إلى البحرين، فتوفي بها، أو ببلدة "طيوي" من عمان، له ديوان شعر".

وقد جاء في مقدمة ديوانه أنه شاعر "جميل الأحداث والصيت، وكرم النفس المتوافر، ونزاهتها ومجدها المتكاثر، والتمسك بالدين والعفاف، وحسن الخلق والإنصاف، فلم يقصر عن الكمال بفوت فضيلة، ولا دنس عرضه بارتكاب رذيلة، بل كمل فضلاً وخلقاً، وأخذ من كل نفيس حظاً وحقاً، ومع ذلك فقد نظم بدائع الكلم، قبل بلوغ أوان الحلم، وبرز على الكهول في الشعر؛ ولم يزد سنة على عشر، ولم يخرج منه القريض لاكتساب مال، أو لفاقة ورثاة حال". توفي ابن المقرب في البلدة التي ولد فيها.

وقيل عنه في أغلب المراجع أنه كان شاعراً مجيداً محسناً، من فحول الشعراء، مليح معاني الشعر، جزل الألفاظ، فصيح العبارة، وقيل أنه "أحد الشعراء الموصوفين المشاهير. أقر بالحدق له أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم، ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني".

كما قالوا فيه: "فريد دهره، وهو المتقدم على متقدمي عصره، حسن السبك في شعره، جزل الألفاظ في كلمة، كثير الأمثال في نظمه، ولم يتكسب بالشعر لعطايا، ولم يمتدح ذا ثروة في البرايا، وإنما كان مديحه في أكثره في أهل بيته وعشيرته وهم ملوك البحرين".

قيمة تاريخية

ولشعر ابن المقرب قيمة تاريخية "تتمثل في حفظه تاريخ الأسرة العيونية التي حكمت إقليم الإحساء والقطيف وهجر والبحرين أكثر من قرن ونصف القرن" وأغفلت معظم كتب التاريخ أخبارها. ومن شعره:

ومبدية تيهأ علي وقد رأيت بياضا برأسي قد بدا منه ريعان
فقلت لها لا يا ابنة القوم إنني أعز إذا ذلت كهول وشبان
وإني لمن قوم أباه أعزة مصاليت ما خاموا قديماً ولا خانوا
لي النسب الوضاح قد علمت به معد إذا عد الفخار وعدنا

وقيل إن الحركة الأدبية في نجد وشرق الجزيرة العربية كادت أن تكون نسياً منسياً طوال ألف عام على وجه التقريب لولا ظهور شاعر ينتمي إلى الأسرة العيونية، وهو علي بن المقرب العيوني الذي كان له الفضل في تكوين تدوين تاريخها، وتسجيل أحداثها في شعره الغزير الذي يعد مرجعاً هاماً في التاريخ السياسي لهذه البلاد، ويعطي صورة واضحة مميزة عن الشعر العربي حتى في قلب الجزيرة العربية آنذاك.

والقارئ لديوان ابن المقرب يستطيع أن يجمع فكرة شاملة للحياة السياسية بالبحرين في زمنه، كما أنه يمكن للباحث في شعره أن يتلمس من خلال بعض صور الحياة العامة المعاصرة له.. فشعر ابن المقرب يكاد يكون وحده – بالنسبة لتاريخ الدولة العيونية خاصة وتاريخ الجزء الشرقي من بلاد العرب عامة – هو أحد المصادر المباشرة التي تمدنا بوصف كامل للصراع على السلطة والحكم في

تلك الحقبة من الزمن حتى قال الكثير من دارسي الأدب والتاريخ أنه لولا شعر ابن المقرب لضاع ذلك التاريخ أو معظمه.

وبالتأكيد من يقرأ التاريخ يجد أن هناك دولاً وحضارات سادت ثم بادت لم يبق منها إلا ما سجله مؤرخ أو ما تغني به شاعر... خاصة إذا كان هذا الشاعر من أبناء أسرة حكمت هذه الدولة فإنك تجد في شعره دلالات واضحة على معاني هذه الدولة وأماكن مجدها ورموز عزها... وإذا كانت الدولة العيونية التي نشأت في البحرين وكانت تضم المنطقة الشرقية من عام ٤٦٩ هـ - ٦٢٦ هـ، والتي أسسها عبد الله بن علي محمد بن إبراهيم بن محمد العبدى القيسي الربيعي نسباً العيوني سكناً إلى قرية العيون شمال شرق الأحساء قد كان لها دور قوي في التاريخ الإسلامي بلغت فيه شأنًا بعيداً في الجحد والرفعة، مما جعل شاعرها المشهور (علي بن المقرب بن منصور بن المقرب) المولود عام ٥٧٢ هـ وتوفي على أرجح الأقوال عام ٦٢٩ هـ يتغنى ببعض مصاريفها ومشافيتها، كما أنه يحن إلى بلاد أحواله (بني حنيفة) والممتدة من ديارهم جنوباً إلى الخرج وأطراف الجبال (علية) فها هو يحن إلى بلاد عاش فيها مع أحواله حيث قال في مدح محمد بن سعود بن أبي الحسين:

لله أيام الصبابة إذ دارنا حجر القري ولنا بإجلة معهد

فحجر القرى هي: مدينة الرياض، أما (إجلة) فهي كما قال عنها صفى الدين البغدادي: قرية في اليمامة، وقال عنها ياقوت فيمعجمه: إجلة بالكسر ثم السكون: من قرى اليمامة عن الحفصي.

وديوان ابن المقرب من الدواوين الكبيرة، وله شهرة قديماً وحديثاً، وقد طبع ست طبعات، آخرها في الكويت، صدر عن مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

أصل مدينة العيون

ومدينة العيون تقع في المنطقة الشرقية غربي الخليج العربي بنحو خمسين كيلومتراً وتبعد عن مدينة "الإحساء" بخمس وعشرين كيلومتراً شمالاً وجنوبي مدينة الدمام بنحو مائة وعشرين كيلومتراً... وشرقي العاصمة الرياض بنحو ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً ويمر بطرفها الغربي طريق الدمام الإحساء السريع وترتبط بميناء العقير التاريخي على ساحل الخليج العربي بطريق مباشر يبلغ طوله ست وسبعون كيلومتراً. وتقع بين خطي الطول ٣٠ - ٤٩ و ٤٠ - ٤٩ وخطي العرض ٣٠ - ٢٥ و ٤٥ - ٢٥ م... ويعود أصل تسمية العيون إلى وفرة العيون والينابيع بها، ويذكر الشيخ حمد الجاسر نقلاً عن شرح ديوان ابن المقرب (١٣٠٧هـ) أن العيون ناحية الشمال من الإحساء من البحرين زعموا أنه كان بها أربعمائة عين كلها تجرى وتسقى بساتين.

والعيون مدينة ذات تاريخ عريق موغل في القدم، وقد جاء ذكرها في العديد من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية. وقد دلت ملامح الاستيطان البشري في المنطقة على وجود آثار حضارة العبيد في موقع "عين قناص" بمدينة العيون (٢٥٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م). وأقدم ما جاء من ذكر العيون، ما ذكره ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ونقله الكبرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ في كتابه معجم

ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع حيث يذكر: "ونزلت عامر بن الحارث بن

إنمار بن عمرو بن وديعة بن وكيز بن أفصى بن عبد القيس، والعمور وهم بنو الدليل بن عمرو، ومحارب بن عمرو، وعجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى، ومعهم عميرة بن أسد بن ربيعة حلفاء لهم الجوف والعيون والإحساء وذلك عند ذكره لافتراق ربيعة وإلى العيون ينسب العيونيون بنو عبد القيس الذين أزالوا حكم القرامطة من المنطقة وتغلبوا عليهم وبسطوا نفوذهم على ما يعرف قديماً بالبحرين من الكويت شمالاً حتى عمان جنوباً، وأطراف اليمامة غرباً فيما بين (٤٦٦-٦٣١هـ) ومنهم شاعرنا علي بن المقرب العيوني.

وقد ذكر العيون في كثير من شعره:

"تري حيث أعلام العيون تراها فخلوا لأعناق المطي براها"
وكذلك:

"وهل أرين العيس تهوي رقاها بنا حيث أنقاء العيون الشواهد"
وكذلك:

رعي الله التليم وساكنيه وأجزاءاً تكنفها التلام
وجاد من الجديد إلى المصلى إلى الحصنين وكاف ركام
فمسرح لذتي ومراح لهوى هنا لكم وجيرتي الكرام

وينتمي أهل العيون إلى قبائل عربية استقرت فيها منذ القدم، وقد أكتسب أهل العيون لذلك مجموعة من الصفات العربية الحميدة، كالكرم والنخوة العربية. ويبلغ عدد سكان مدينة العيون نحو ٥٢,٠٠٠ نسمة وفق دراسة أعدتها الجمعية الوطنية للسكان في عام ٢٠٠٨م.

علاقته بأمراء العيونية

ولقد كان ابن المقرب لصيقاً ببعض أمراء الدولة العيونية الذين تولوا الحكم بعد مؤسس الدولة العيونية "عبد الله بن علي" مثل محمد بن الحسين، الذي قويت الدولة في عهده، وكان مقرباً من هذا الأمير وناشده بأن يأخذ من خزينته ما يشاء. ولكن ابن المقرب كان يترفع عن طلب المال ويقول: "والله ما قلت ما ذكرت ما ذكرت لشيء من الجوائز ولا زيادة المال، وإنما ذلك كان مني إذ رأيتك أهلاً لما ذكرت فوضعت في موضعه". .. ولما قتل الأمير محمد بن أبي الحسين، وبدأ الصراع بين أمراء الدولة قلت علاقته بالأمراء فقد زجوا به للسجن وأخذوا أمواله منه.

رحلات ابن المقرب

خرج ابن المقرب إلى بغداد أوائل سنة ٦٠٤ هـ أو في سنة ٦٠٣ هـ. وكان أول من كانت للشاعر معهم صلة من أعيان العراق أمير البصرة شمس الدين باتكيت، وأيضاً ابن الشعار الموصلية وياقوت الحموي و"أبي البقاء العكبري" وكان ذلك في العهد العباسي... وقد مدح ابن المقرب الناصر لدين الله وأيضاً التقي ببغداد بأحد رجال الدولة العباسية وهو (فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدوامي) سنة ٦١٤ هـ وقد مدحه بإحدى قصائده.. والتقى أيضاً بالشيخ (محب الدين الواسطي) أحد أئمة الشافعية ببغداد.. ومن المؤكد أن ابن المقرب كان يخرج مع أهله إلى أطراف البحرين مثل نجد وأقام فيها حيث قال:

لله أيام الصبا إذ دارنا حجر القرى ولنا بإجلة معهد

ولعل إقامته بنجد للارتياح والاصطياف كما جرت عادة أهل البحرين... وله أيضاً أبيات أخرى يحن فيها إلى ربوع العيون ويستعيد ذكرياته فيها مع جبرته الكرام فيقوله:

وَأَجْرَاعاً تَكْنِفُهَا السَّلاَمُ	رَعِيَ اللَّهُ التَّلِيمَ وَسَاكِنِيهِ
إِلَى الْحَصَنِينَ وَكَافَ رُكَّامُ	وَجَادَ مِنَ الْجَدِيدِ إِلَى الْمُصَلَّى
هَنَّاكُمُ وَجِيرَتِي الْكَرَامُ	بِمَسْرَحٍ لَذِي وَمَرَّاحٍ لَهْوَى

في نظمه ترى الحماسة والأمثال الجيدة مع البلاغة المستحسنة، وقد أصابته من بني عمه نكبات أوجبت له تجشم الغربات وفي ديباجة شرح ديوانه شرح لما لقيه من زمانه وهو مبذول.
قال في اغترابه:

مَا بَيْنَ حَرِّ وَبَيْنِ الدَّارِ مِنْ نَسَبِ	فِي كُلِّ أَرْضٍ إِذَا يَمُمْتُهَا وَطَنِ
فَحَلَّهَا لَضَعِيفِ الْعِزِّمِ وَاغْتَرَبِ	إِذَا الدِّيَارُ تَغَشَّاكَ الْهَوَانُ بِهَا

وقال:

فَدَعَهُ فَمَا يَغْضِي عَلَى الضَّمِّ مَا جَدَ	فَإِنْ سَاءَتْكَ أَخْلَاقُ أَهْلِهِ
وَلَا الْخَطَّ أَنْ فَارَقْتَهَا لَكَ وَالِدَ	فَمَا هَجَرَ أَمَا غَذَتْكَ لِبَانُهَا

وقال:

لَا أَرَى النَّوْمَ عَلَى شَوْكَ الْقِتَادِ	خَلِيَانِي مِنْ وَطَاءٍ وَوَسَادِ
فَهِيَ بِحَرِّ لَيْسَ يَرُوي مِنْهُ صَادِي	وَاتْرَكَانِي مِنْ أَبَاطِيلِ الْمَنِي
بِمَسِيرٍ أَوْ طَعْنَانٍ أَوْ جَلَادِ	إِنَّمَا تَدْرِكُ غَايَاتِ الْمَنِي

من ذاكرة ابن المقرب

ويتساءل أحد الباحثين: ماذا أعطت سنوات عمر ابن المقرب، من صفاء أو جفاء، منذ مولده عام ٥٧٢ هجرية ببلدة العيون، حتى وفاته عام ٦٣٠ هـ ببلدة طيوي في عمان؟... وأجاب: لقد أعطته كل هذه السنين، كما هائلاً من معاناة التشرد والعذابات، والرحيل عبر المنافي البعيدة عن وطنه، ثم الضنك والأوجاع والنوائب... وفي نظره، أن المرء إذا كان مخلصاً مع نفسه على الأقل، لا يستطيع أن يهرب من ماضيه، لأنه لا يمكنه أن يهرب من نفسه، وتلك هي المأساة.. فهو تحديداً، منذ ما يزيد على خمسة وعشرين عاماً بقليل، في الفترة ما بين عام ٦٠٥ هـ حتى عام ٦٣٠ هـ، مشرد عن وطنه، ومتوقف عن المشاركة في اتخاذ القرار فيما يختص بشقونه، لكنه كان شعلة نيرة في مجال مواقفه وذاكرته وأدبه.

في البداية نرى موقفه من سلوك القرامطة، إذا على يد المؤسس الأول من الدولة العيونية، زال القرامطة من شرق الجزيرة العربية - والقرامطة جعلوا تأدية الصلاة والصيام، مسألة شخصية لا علاقة لها بالأوامر الشرعية، بينما الصلاة والصيام ركنا رئيسيان من الأركان الخمسة التي يقوم عليها الإسلام.. وما من فرقة من الفرق الإسلامية الرئيسية ترى إلغاء أي ركن من أركانها الخمسة... إذ يقول فيهم:

وأبطلوا الصلوات الخمسة وانتهكوا شهر الصيام ونصوا منهم صنماً

فمن منطلق إلغاء الصلاة والصيام، أنبث الرعب في نفوس أبناء المنطقة الشرقية، وبذلك هجرت مساجدها، وقام أتباع القرامطة بتدميرها، وعندها يقول ابن المقرب:

وما بنوا مسجداً لله نعرفه بل كل ما أدراكوه قائما هدماء

ثم كان له موقف حين نشب الصدام بين القوة السلجوقية المهيمنة، والقوة العيونية الناشئة والفتية وقد كان هدف السلاجقة ينحصر في البدء في مزيد من المكتسبات الإقليمية، بغية بسط نفوذهم وسيادتهم على هذه البقعة، ولكن تمكن عبد الله بن علي، مؤسس الدولة العيونية، من القبض على القائد السلجوقي البقوش، الذي قدم مع أخيه إكسلار لمساعدته في القضاء على القرامطة عام ٤٦٩هـ - ١٠٧٥م، وذلك بعد مغادرة أخيه منطقة البحرين مما مكن عبد الله بن علي العيوني من الاستقلال بحكمها... فعند وصول خبر مقتل البقوش إلى بغداد، جهزت السلطة العباسية قوة عسكرية قوامها ألفا فارس بقيادة ركن الدين السلجوقي الذي حاصر الأمير عبد الله في قصر بالإحساء.. فصاح ابن المقرب قائلاً:

والشركسية إذا جاءت تطالبنا دم النفوس وفينا تقسم القسما

وقال كذلك:

ضربنا وجوه الشركسية دونه وأقفاءها بالسيف حتى تثلما

وفي موقف آخر، من مواقف فترة التأسيس للإمارة العيونية، قال ابن المقرب في عبد الله بن علي (٤٨٤هـ / ١٠٩٠م) مؤسس هذه الإمارة، الذي جعل الحكم وراثياً في أبنائه خاصة. وإن شارك في الحكم أمراء عيونيون آخرون، أما أبنائهم فهم: أبو علي الحسن وفضل (وأبو مسيب) ومسعود وماجد، وضبار (أو صبار كما يرد أحياناً).

وعاقب قومي الغر عقوبة وخصص من ينمي علي وعبدل

أصاب الإمارة العيونية الضعف والانقسام بين آل الحسن وآل أبي منصور، لكنها فجأة تتوحد على أيدي عماد الدين محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل (٥٨٧هـ /

١٢٠٨م). وقد عكس شعر ابن المقرب صرامة هذه الشخصية الفريدة، في اتخاذ القرار وفي حزمة

على التنفيذ وقمع المتمردين والمتآمرين، فيقول:

أجرى نزاراً كيف شاء ويعرباً بالكره من مرادها، وعتاتها
ما حاربتة قبيلة إلا غدت أحيائها وفداً على أمواتها

وقد تميز عهد الأمير محمد بالأمن والرخاء على الرغم من كثرة الحروب التي كان يشنها على أعدائه، ومجابهته المستميتة للضربات الخارجية... وتحولت البحرين بفضل الأوضاع الاقتصادية المزدهرة إلى خصب وانتعاش، أجاد أبن المقرب حين قارنهما بجنة مأرب، فقال:

كانت به البحرين جنة مأرب أيام بهجتها وطيب حياتها

وكان الأمير محمد، حريصاً كل الحرص على إشاعة العدل والرخاء بين رعاياه، ولا غرو في ذلك، (فهو جواد كريم، لا يترك محتاجاً لحاجته، يحب الخير للجميع، وهو في نفس الوقت شديد على أهل الجور والاعتداء، ثم هو يزيل الروع من النفوس التي أحدثت جرماً فخافت العقاب، وأكثر من ذلك كله، كان محمد يكره اقتتال القبائل بعضها للبعض، فكان يتوسط فيما بينها، فيزيل خلافتها وأحقادها) - على حد تعبير الدكتور العماري -، فقد قال فيه ابن المقرب:

وكم راجل أمسى بنعماه فارساً وكانت صفايا ماله المعز والضان
وكم من حريب راح نهباً سوامه فراح عليه للكآبة عنوان
فلما أتاه شاكياً من زمانه غدا من عطايا كفه وهو جذلان

من ديوانه الشعري قال:

ولم يدر أي ماجد شف جسمه لقاء هموم خيلها أبداً تردي

قليل الكرى ماض على الهول مقدم
عدمت فؤاداً لا يبيت وهمه
لعمري ما دعد بهمي وإن دنت
ولكن وجدي بالعلاء وصبايتي
إلى كم تقاضاني العلا ما وعدتها
وكم أندب الموتى وأسترشح الصفا
وأمنح سعي والمودة معشراً
إلى الله أشكو عثرة لو تدوركت
مديحي رجالاً بعضهم أتقى به
فلا الود كاف ذا ولا ذا كفى الأذى

كما قال:

فكيف بهم لو جئتهم متشكياً
فكنت وإهداء المديح إليهم
وقائله هون عليك فإنها
فإن علت الروس الذنابي لسكرة
فقد تملك الأنثى وقد يلثم الحصى
ويعلو على البحر الغناء ويلتقي
وكم سيد أمسى يكفر طاعة
ولا بد هذا الدهر من صحو ساعة

على الليل والبيداء والحر والبرد
كرام المساعي وارتقاء إلى المجد
ولا لي بهند من غرام ولا وجد
لعارفة أسدي ومكرمة أجدي
وغير رضا إنجازك الوعد بالوعد
وأستنهض الزمني وأعتان بالرمد
أحق بمقت من سواع ومن ود
بتمزيق جلدي ما أسفت على جلدي
أذاه وبعضاً للمراعاة والود
ولا نظروا في باب ذم ولا حمد

خصاصة أيامي وسمتهم رفدي
كغابط أذئاب المهلبة العقيد
متاع قليل والسلام في الزهد
من الدهر فاصير فهو سكر إلى حد
ويتبع الأغوى ويسجد للقرد
على الدر أمواج تزيد على العد
لأسود لا يزجي لشكم ولا شك
يبين لنا فيها الضلال من القصد

فقلت لها: عني إليك فقلما
أبي الله والسوددان بأن أرى
ألم تعلمي أن العتو نباهة
وأن مداراة العدو مهانة
أأرضى بما يرضي الديني وصارمي
سأَمْضِي على الأيام عزمين حرة
فإن أدرك الأمر الذي أنا طالب
وإن اخترم من دون ما أنا آمل

وجاء في شعره:

وإني من قوم يبين بطفلهم
فإن لم يكن لي ناصر من بني أبي
وإن يدرك العلياهم بمومه
وإني لبدر ريع بالنقص فاستوى
إذا رجفت دار العدو مخافتي
فأه لقومي يوم أصبح ثاوياً
وإني في قومي كعمرو بن عامر
أراهم أمارات الخراب وما بدا
فلم يراعوا مع ما لقوا فتمزقوا
وكم جرد في أرضنا تقلع الصفا
خليلي ما دار المذلة فاعلما
ولا لي في أن أصحب النذل حاجة

يعيش الفتى حتى يوسد في اللحد
بأرض بها تعدو الكلاب على الأسد
وأن الرضا بالذل من شيمة الوغد
إذ لم يكن من سكرة الموت من بد
حسام وعزمي عزم ذي لبدة ورد
يفدي بآباء الرجال ولا يفدي
فياجد مستجد ويا سعد مستعد
فيا خيبة الراجي ويا ضيعة الوفد

لذى الحدس عنوان السيادة في المهدي
فحزمي وعزمي يغنيان عن الحشد
فنفسي تناجيني بإدراكها وحدي
كمالاً وبحر يعقب الجزر بالمد
فلا تسألاني عن سعيد ولا سعد
على ماجد يحيي مكارمهم بعدي
ليالي يعصي في قبائله الأزد
من الجرذ العياث في صخرها الصلد
أيادي سبا في الغور منها وفي النجد
وتقذف بالشتم الرعان على الصمد
بداري ولا من ماء أعدادها وردي لصحة
علمي أنه جرب يعدي

أيذهب عمري ضلة في معاشر
سهادهم فيما يسوء صديقهم
إذا وعدوا الأعداء خيراً وفوا به
وشرهم حق الصديق فإن هذوا
ستعلم هنا أنني خير قومها
وأني إذا ما جل خطب وردته
وأن أيادي القوم أبسطها يدي

وقال في شعره أيضاً:

وأني متى يدعى إلى البأس والندى
وأن كرام القوم لا نهز العدي

وقال:

غداً نغتذي للبين أو نتروح
غداً تقفز الأطلال ممن نوده
غداً تذهب الأظعان يمنه ويسرة
فيا باكياً قبل النوى خشية النوى
ولا تعجلن واستبق دمعك إنني
إذا كنت تبكي والأحبة لم يرد
فكيف إذا ما أصبحت عين مالك

مشائيم لا تهدي لخير ولا تهدي
وأنوم عن غم العدو من الفهد
وفاء طغام الهند بالنذر للبد
بخير له فليتنظر فتحة السد
وأني الفتى المرجو للحل والعقد
بعزيمة ذي جد وإقدام ذي جد
وإن زناد الحي أثقبها زندي

فأحضرها نصري وأجزلها وردي
ليوجعها عتبي ويؤلمها فقدي

وعند النوى يبدو الغرام المبرح
ويمسي غراب البين فيها ويصبح
ويحدو تواليها نجاح ومنجح
رويداً بعين جفنها سوف يقرح
رأيت السحاب الجون بالقطر ينزح
بيئتهم إلا حديث مطروح
وحبل الغضا من دونهم والمسيح

فكف شئون الدمع حتى تحثها
خليلي هبا من كرى النوم وانظرا
لقد كدت مماكاد أن يستفزني
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
ويا حبذا ذاك التجبين الذي غدا
فكم ليلة قد كاد يخطف ناظري
غداً ثم تهمي كيف شاءت وتسفح
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
أبوح بسري في الهوى وأصرح
إذا ما تجلى ضاحكاً وهو يمرح
يلوح علي الزعفران المذرح
ونحن بميدان الدعابة نمرح

ولنختتم هذه الزيارة السريعة لشعر وتاريخ ابن المقرب "ديوان الدولة العيونية" بأبياته المليئة بالتعجب والعتاب:

ماذا بنا في طلاب العز ننتظر
لا عز قومك كم هذا الخمول وكم
فاطلب لنفسك عن دار الأذى بدلاً
بأي عذر إلى العلياء نعتذر؟
ترعى المني حيث لا ماء ولا شجر
إن جنة الخلد فاتت، لم تفت سقر

إعداد د. محمود عطية